المسألة اليهودية من منظور مالك بن نبي: دراسة تحليلية

بدران بن لحسن*

مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قطر.

ملخص: تتناول هذه الورقة كتاب مالك بن نبي «وجهة العالم الإسلامي: المسألة اليهودية»، وتهدف إلى استخلاص المنظور الذي عالج به بن نبي الموضوع، والخلاصات التي توصل إليها؛ لذلك اعتمدت الورقة على منهج تحليل مضمون الكتاب. وقد توصلت إلى مجموعة نتائج، أهمها: أن بن نبي درس المسألة اليهودية ضمن أطروحته العامة لمعالجة مشكلات الحضارة، وفي سياق دراسته لظاهرة الاستعمار والعنصرية الغربية وأثرها في مشروع التحضر الإسلامي. كما أن بن نبي اعتمد على التحليل التاريخي والاجتماعي النفسي لتطور النفوذ اليهودي في أوروبا، ورأى أن النفوذ اليهودي هو سبب الرؤية المادية والعنصرية والاستعمار الغربي، وأن الإسلام يمثل الملاذ الروحي للحضارة الإنسانية؛ لإنقاذها من وضعها الحالي، ولكن ذلك يحتاج من المسلمين إلى إستراتيجية واضحة وتخطيط وقيادة مركزية.

الكلمات المفتاحية: المسألة اليهودية، القابلية للاستعمار، الاستعمار، العنصرية، الإسلام.

The Jewish Question from the Perspective of Malik Bennabi: Analytical Study

BADRANE BENLAHCENE*

ORCID NO :0000-0002-9742-2108

*Ibn Khaldon Center for humanities and social sciences, Qatar University.

ABSTRACT: *This paper discusses Malek Bennabi's book "Wijhat Al-'Alim Al-Islamic: The Jewish Problem," aiming to extract Bennabi's approach to the subject and the conclusions he reached. The paper adopts a method of analyzing the book's content and arrives at several key findings. Bennabi studied the Jewish issue within his broader thesis on addressing civilization's problems, particularly in the context of Western colonialism, racism, and their impact on the Islamic civilizing project. He relied on historical and socio-psychological analysis to trace the evolution of Jewish influence in Europe, attributing Western materialism, racism, and colonialism to this influence. Bennabi posited that Islam represents the spiritual refuge for human civilization, However, achieving this requires clear Muslim strategies, planning, and centralized leadership.*

Keywords:*Jewish question, colonialism, colonialism, racism, Islam.*

رؤية تركية
2024-(1/13)
111 - 144

DOI:10.36360/1560-013-001-008

مقدمة:

شهدت فلسطين يوم السابع من أكتوبر 2023 حدثًا مهمًّا في تاريخ مقاومة الاحتلال الصهيوني انطلق من قطاع غزة، ومَثَّلَ الحدث تحولاً نوعيًّا في المقاومة، كسر كثيرًا من المسلّمات التي روّج لها الاحتلال طيلة 75 سنة، في أنه قوة لا تُقهَر، وأنه يسيطر على الجو والبر والبحر، وأن أجهزة استخباراته تعلم بأدنى تحرك في فلسطين المحتلة.

ولكن الحدث كسر كلّ هذا، وجعل القوى الغربية تسارع إلى الوقوف داعمة للاحتلال الصهيوني، بقوة الجيوش، والدعم المالي، والتغطية الإعلامية من قبل المؤسسات الإعلامية الغربية الكبرى، ومنع المؤسسات الدولية من اتخاذ أي قرار ضد الكيان الصهيوني ودعم غزة.

وهذا بقدر ما أدى إلى اكتشاف هشاشة الكيان الاحتلالي، ونبه العالم إلى جوهر القضية الفلسطينية، التي هي قضية إنسانية؛ قضية مقاومة شعب لاحتلال استيطاني يمارس أبشع وسائل الاحتلال- فإن هذه الأحداث أيضًا كشفت مدى تغلغل اللوبي الصهيوني في المؤسسات الرسمية الغربية ووسائل إعلامها الكبرى، ونفوذه لدى مراكز صنع القرار الغربية.

لذلك عاد النقاش في موضوع النفوذ اليهودي في العالم عمومًا وفي الغرب بوجه خاص، وكيفية تشكل هذا النفوذ، حتى جعل القوى الغربية تسارع إلى نجدته ودعمه في جرائمه الاحتلالية، ومنع اتخاذ أي قرار دولي فاعل يناصر المقاومة الفلسطينية أو يحمي المدنيين الفلسطينيين من القتل والمذابح التي ترتكبها آلة الحرب والقتل الصهيونية في غزة والضفة وبقية الأراضي الفلسطينية.

إن هذا الموقف الغربي الرسمي مما يفعله الكيان الصهيوني، والتأييد الكبير الذي لقيه وهو يرتكب جرائم ضد الإنسانية وتتجاوز القانون الدولي والقانون الدولي الإنساني- يطرحان تساؤلات عن مدى النفوذ اليهودي في هذه الدوائر الرسمية الغربية وفي وسائل إعلامها وشركاتها الكبرى ودوائر صنع القرار فيها.

في هذا السياق، فإن كتاب مالك بن نبي "وجهة العالم الإسلامي: المسألة اليهودية" يُعَدّ واحدًا من الكتابات المبكّرة التي تناولت هذا النفوذ اليهودي الصهيوني في أوروبا والغرب. وعليه فإن هذه الورقة تتناول "المسألة اليهودية" من منظور مالك بن نبي؛ أي كيف تناول مالك بن نبي موضوع النفوذ اليهودي في العالم، وفي الغرب خصوصًا؟ وما السياق الذي تناول فيه الموضوع؟ وما الحلول التي اقترحها لمواجهته والتقليل من أثره

في الأمة، بما يخدم قضية تحرير لفلسطين من الاحتلال، واستعادة التوازن بين العالم الإسلامي والعالم الغربي؟

تهدف الورقة إلى استخلاص المنظور الذي عالج به بن نبي الموضوع، والخلاصات التي توصل إليها، بما يخدم موقف المسلمين من الموضوع، ويعطي للنخبة المسلمة فهمًا للمسألة اليهودية، يُسهم في التخلص من العنصرية والاستعمار والمادية التي كانت من آثار النفوذ اليهودي في الحضارة المعاصرة، ويفتح مجالاً لإسهام الإسلام في تقديم بديل روحي وحضاري يحقق السلام العالمي، ويحفظ إنسانية الإنسان.

أوّلاً. حضور كتاب المسألة اليهودية في الأدبيات البحثية والفكرية:

في بداية مراجعتنا لأدبيات الموضوع، تجدر الإشارة إلى أن مالك بن نبي كان قد أنهى تأليف كتابه المشار إليه في يناير 1952، لكنه أرجأ نشره، وتوفي في أكتوبر 1973، ولم ينشر الكتاب، بل تم نشره في يناير 2012؛ أي بعد ستين عامًا على تأليفه.

وأول ما كُتِب عن كتاب بن نبي هو مقدمة الكتاب التي كتبها رضوان السيد، ثم نشره في مقال منفصل. أشار السيّد إلى أن بن نبي يدخل إلى المسألة اليهودية، بوصفها من العوامل المساعدة للاستعمار، والاستبقاء على القابلية له، وأن السيطرة التي حققها اليهود «حدثت من خلال السيطرة على المنظومات الفكرية الرئيسية في أوروبا الوسيطة والحديثة، وهي الآن تسيطر أيضًا على منظومات العمل»[1].

ومن بين أهم ما كُتب حول الكتاب، ما قام به عبد الرزاق بلعقروز، الذي أشار إلى ربط بن نبي بين الحضارة الغربية ومشروع تحديثها وبين دخول اليهود إليها، حتى شكلوا روح الحضارة الغربية وقلبها، ممّا دعا بن نبي إلى تفكيك نقدي للتاريخ الثقافي للحضارة الغربية. وهذا ما جعل بلعقروز يطرح أسئلة مهمة تتعلق بمساءلة نص بن نبي عن حقيقة بداية الحداثة الغربية مع دخول اليهود إلى أوروبا، والمنهج الذي توسل به بن نبي في إنجاز دراسته هذه، ومدى وعي المسلم بقوة اليهود في الغرب وتأثيره في مستقبل الإسلام. والتحدي الذي يطرحه ذلك الأمر في وجه المسلمين في سبيل التخلص من القابلية للاستعمار وإنجاز نهضتهم وتحقيق العيش المشترك بدل الصراع مع الغرب[2]. كما أن ميزة ما قدمه بلعقروز أنه نظر إلى مسوّغات طرح الموضوع في وقتنا الراهن، والدور العميق الذي تناوله بن نبي في كون اليهود عقل الحضارة الغربية وروحها، وتصنيف بن نبي لليهود على أصناف متعددة، والمنظور الحضاري الذي نظر من خلاله بن نبي إلى المسألة اليهودية في صلتها بالغرب وبالحضارة الإسلامية[3]. ولولا أنه مقال قصير لكان دراسة متميزة لا يمكن تجاوزها.

أما عماد العبار فيرى أن بن نبي وضع يده «مبكّرًا على مشكلة الحضارة الغربية، محاولاً أن يفسر لغز المسألة اليهودية ودورها في بناء العالم الأوروبي، وفي ظاهرة الاستعمار[4]، وأن بن نبي حين كتب كتابه هذا لم يكن الحديث عن الموضوع «من المحرّمات بعد، ولم يكن الحديث عن مسؤولية اليهود قد أصبح جريمة يعاقب عليها القانون بتهمة معاداة الساميّة، فجاء الكتاب صريحًا ومباشرًا في تفكيك القضية اليهودية ودورها في بناء العصر الحديث، ونشوء ظاهرة الاستعمار والعنصرية»[5]... وكان بن نبي استشرف «التحولات التي حدثت لاحقًا، والتجريم الذي صار يطال أولئك الذين يخوضون في مواضيع كهذه يمكن وضعه في ذات السياق الذي تحدّث فيه مالك؛ أي في دور القضية اليهودية نفسها في تكوين سياسات الغرب، وقوانينه، ونظرته العامة للأشياء»[6].

وفي مقال له، كتب إبراهيم العجلوني أننا نفهم من كتاب مالك بن نبي أن «ثمة تواشجًا بنيويًّا بين الصهيونية وبين أوروبا المنفلتة من ظلام عصورها الوسطى. وان لليهود سيطرة على أوروبا وأمريكا في شتى مجالات الحياة... وأن الصهيونية أصبحت جزءًا حميمًا من البنية الشعورية والعقلية للغرب».[7]

وفي رسالتها للماجستير في مقارنة الأديان، تناولت دلال الجار الله[8] المسألة اليهودية مقارنة بين ماركس وبن نبي. تناولتها باعتبارها قضية دينية ارتبطت بأبعاد متعددة اجتماعية واقتصادية وسياسية. وقد أشارت الباحثة إلى التطور الديني الذي حدث في الحضارة الغربية، حيث تطورت العلاقة بين اليهودية والمسيحية من ندّية وشكّ إلى توافق مصلحي تغاضى عن الاختلافات الدينية. وقد ركّزت الباحثة على دور اليهود في تشكّل الحضارة الغربية، وكيف أدخلوا فيها الفكر العنصري والمادية. وتوصلت الدراسة إلى أن المسألة اليهودية في نظر بن نبي هي أحد عناصر الصراع الحضاري في العالم، وأنها من وراء كثير من مشكلات العالم اليوم.

من جهتها رأت سمية قواجلية أن هذا الكتاب رغم أنه كتب منذ أكثر من سبعين سنة فإنه يلامس الواقع الجديد بمختلف متغيراته. كما أنه يُعَدّ «هذا الكتاب بمثابة دراسة خارجية ركّزت على القضية الإسلامية في إطارها العام، كما قامت بتسليط الضوء على عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، التي تبلورت خلالها الهوية اليهودية، أين اتخذت لنفسها مكانًا عالميًّا»[9]. كما أشارت إلى تناول بن نبي «الإجابة عن الأسئلة المطروحة حول الهيمنة اليهودية. مبرزًا من خلال الدراسة كيف قام اليهود ببناء دولتهم معتمدين على استثمار في مجمل الأحداث التي مروا بها على مر السنين الماضية. وكيف استطاعوا التأثير في أوروبا حتى نالوا مراكز القرار والدور العالمي»[10].

وقد تطرق أحمد طرفاوي في دراسته إلى إبراز علاقة اليهود بالغرب من وجهة نظر بن نبي، وطرق تَعرّفه القضية اليهودية، «ومسار استكشافه وتوسيع دائرة معارفه حول القضية اليهودية في أوربا، ودور اليهود في الحضارة الغربية الحديثة منذ عصر النهضة، وسطوتهم على رأس المال في الغرب، وكذا فاعلية اليهود وقدرتهم على التكيّف مع مستجدات الأحداث الأوربية»[11]

> **"هيمن اليهود على الحضارة الغربية ثقافيًا وسياسيًا واقتصاديًا وأثر ذلك في تحول أوروبا إلى العنصرية ونشوء الاستعمار"**

أما عبد القادر بن قدور فقد تناول «المسألة اليهودية في فكر مالك بن نبي»[12] من خلال محاور ثلاثة: اختراق اليهود لأوروبا والعالم، والتوصيف الذي أعطاه مالك بن نبي لأصناف اليهود في أوروبا، ثم موقع المسألة ضمن سياق مستقبل الإسلام والتدافع الحضاري. ورأى الباحث أن بن نبي ركز على «الجذور التَّاريخية للإنسان اليهودي وثقافته وتكوينه، وتحليل الحالة النّفسية للظّاهرة اليهودية دوليًّا وإقليميًّا؛ لذلك ربط مالك بن نبي بين تجذُّر الفعل الحداثي في أوروبا والهوية اليهودية»[13]. وعليه كانت الهيمنة اليهودية، وكيفية قيام اليهود «ببناء دولتهم معتمدين في ذلك على الدولار والمرأة والمصلحة، فاستطاعوا تهويد أوربا والتحكّم في مراكز القرار السياسي والاقتصادي والعسكري والديني». وهذا جعلهم «قلب وروح الحضارة الغربية».[14]

وكذلك الأمر مع مصطفى كيحل الذي قام بعرض للكتاب، ورأى أن بن نبي تتبع «التحليل التاريخي للحضور اليهودي في أوروبا، من أجل تفسير الهيمنة اليهودية على أوروبا، وهي الإشكالية التي يتصدى لها بن نبي للكشف عن السر الخفي للعالم الحديث أو لغز العصر، وهو لغز تأثير الفكر اليهودي في بناء العالم الأوروبي والاستعمار، وما ترتب عن ذلك من قابلية للاستعمار»[15].

إن الدراسات السابقة التي جرت مراجعتها، تمثّل في معظمها مقالات قصيرة، لم تتناول الموضوع بدراسة مستفيضة، رغم أنها قدمت أفكارًا مهمة تسهم في فهم دراسة بن نبي لموضوع المسألة اليهودية»، وبخاصة السياق التاريخي وهيمنة اليهود على الحضارة الغربية ثقافيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا، وأثر ذلك في تحول أوروبا إلى العنصرية، ونشوء الاستعمار، وصلة ذلك بمستقبل الأمة الإسلامية ومشروعها الحضاري.

لذلك تسعى ورقتنا هذه إلى وضع الكتاب في سياق أطروحة مالك بن نبي لمعالجة مشكلات الحضارة، والتحليل التاريخي والنفسي لدخول اليهود إلى أوروبا وتشكيلهم لروح وعقل أوروبا الحديثة، ثم دور المسلم اليوم في التعامل مع هذا الوضع لتجاوز حالتي

الاستعمار والقابلية للاستعمار اللتين تعوّقان تقديم الإسلام حلاًّ لمعضلات الحضارة المعاصرة وملاذًا روحيًّا للإنسانية يحتاج من المسلمين وضع إستراتيجية لتحقيقها.

ثانيًا: المحاور الكبرى لكتاب «وجهة العالم الإسلامي: المسألة اليهودية»

إن الناظر في كتاب «وجهة العالم الإسلامي: المسألة اليهودية» يجد أنه يتكون من محاور أساسية لا يمكن إغفالها لفهم أطروحة مالك بن نبي في درس النفوذ اليهودي في الغرب. ذلك أن بن نبي تناول في هذا الكتاب مقدمات نظرية تبيّن أن تناول «المسألة اليهودية» يندرج في سياق معالجته مشكلة الاستعمار والعنصرية الغربية، ثم بعد ذلك تناول كيفية تطور النفوذ اليهودي في أوروبا في عصرها الحديث، وما يتعلق به من الأصناف التي يظهر فيها اليهودي في أوروبا، ثم بعد ذلك أطروحة بن نبي في كيفية تحول العالم الإسلامي إلى ملاذ للحضارة الإنسانية يخرجها من عصرها الذي هيمن عليه اليهود وتميز بالعنصرية والاستعمار.

1. وجهة العالم الإسلامي بين الاستعمار والقابلية للاستعمار:

يصرح بن نبي في مقدمة كتابه هذا أنه تكملة لدراسته الأخرى التي تحمل العنوان نفسه (وجهة العالم الإسلامي). وبالرغم من أنهما دراستان مختلفتان فإن كلتيهما تشكل منظوره في دراسة واقع ووجهة العالم الإسلامي في سياقين متكاملين: سياق القابلية للاستعمار، وسياق الاستعمار، وهما سايقان يشكّلان العامل الداخلي والعامل الخارجي للتخلّف الحضاري في العالم الإسلامي.

يقول بن نبي: «القسم الأول من هذه الدراسة (وجهة العالم الإسلامي) الذي نشر في كانون الثاني/ يناير والقسم الثاني الذي نحن بصدده الآن مختلفان من حيث طبيعتهما»[16]. لكن أين يكمن الاختلاف بينهما؟ وماذا يتناول كل منهما؟ وبأي منظور؟

يجيبنا بن نبي بقوله: «القسم الأول يمكن أن يعتبر في العمق اختصارًا لدراسة داخلية للعالم الإسلامي، وبالخصوص من زاوية (القابلية للاستعمار)، وهذا قد اقتضى العودة إلى استعراضنا خط تطور العالم الإسلامي من قيام حالة القابلية للاستعمار (عصر ما بعد الموحدين)، إلى قيام حالة الاستعمار حينما استعمرت أوروبا المسيحية البلاد الإسلامية».[17] أما هذه الدراسة التي بين أيدينا فيقول فيها بن نبي: «بالمقابل فهذه الدراسة في القسم الثاني من (وجهة العالم الإسلامي) هي دراسة خارجية مستقبلية تركز على القضية الإسلامية في إطار القضية العامة التي سوف تأتي»[18].

وكلتاهما تندرجان ضمن سلسلة كتبه: «مشكلات الحضارة». فالحضارة تُعَدّ الإطار الذي ينظّم تلك الأجزاء المتفاوتة في ظاهرها المتصلة في باطنها، التي نسمّيها هنا مشكلة سياسية، وفي مكان آخر مشكلة اقتصادية، وفي موضع ثالث مشكلة أخلاقية. وقد كّرس بن نبي جهده ومؤلّفاته باحثًا عن أسباب الغياب الحضاري للعالم الإسلامي الذي دام طويلاً، وذلك بتّعرف أسبابه، والبحث عن علاج جذري له لا علاج أعراضه ومظاهره الجزئية[19]. لكنه يعالج مشكلات الحضارة في العالم الإسلامي، في الكتابين في صلتهما بالغرب؛ من منظوري القابلية للاستعمار والاستعمار، كما ذكرنا آنفًا. ومن هنا فإن معرفة الحضارة الغربية وتاريخها يُعَدّ أمرًا أساسيًّا لمعالجة مشكلة الحضارة في العالم الإسلامي، وبخاصة أن الحضارة الغربية تُعَدّ تجربة لا يمكن تجاهلها في إنجازاتها وفي فوضاها على العالم[20]. ولهذا يقول بن نبي: "لا شك أن هذا الإشعاع العالمي الشامل الذي تتمتع به ثقافة الغرب، هو الذي يجعل من فوضاه الحالية مشكلة عالمية، ينبغي أن نحللها وأن نتفهمها في صلاتها بالمشكلة الإنسانية عامة، وبالتالي بالمشكلة الإسلامية»[21].

فكلا المسارين: الاستعمار والقابلية للاستعمار يشكّلان عاملين للتخلّف الحضاري في العالم الإسلامي؛ فإذا كانت القابلية للاستعمار هي ثمرة سيرورة داخلية لحركة المجتمعات الإسلامية عبر التاريخ، ونتيجة لتراكم اختلالات حدثت عبر التاريخ إلى أن

وصلت بالإنسان المسلم منذ عصر "ما بعد الموحدين"[22] إلى أن تترهل إرادته الحضارية ويصير في حالة تتقبل أن يتمّ استعماره واحتلاله- فإنّ الاستعمار ثمرة لعامل خارجي هو الحضارة الغربية بعنصريتها ونهبها لخيرات الشعوب خارج أوروبا في العصر الحديث.

ولكن هذا العامل الخارجي (الاستعمار الغربي) الذي يعمّق تخلّف أمتنا، ويسهم في تعطيل سعيها للتحضّر، يستوجب منا فهمًا ووعيًا وفق منهج يستوعب تشكل الغرب الحديث ويفهم مكوناته، وتحوله إلى هذه العنصرية التي تستعلي على الشعوب وتغزوها، بل وتشكل العالم الحديث، الذي وصل بعد الحرب العالمية الثانية إلى نقطة تستدعي بديلاً حضاريًّا مختلفًا، وبخاصة بعد الإخفاق الأخلاقي للحضارة الغربية، وفقدانها لإنسانيتها.

وهذا لا يكون من دون ترشيد السياسة الإسلامية وبنائها على وعي منهجي. يقول بن نبي: "فالعفوية والتجريبية والعاطفة النبيلة والغضب المقدس؛ ذلك كله، هو طابع السياسة الإسلامية اليوم... وقد تشفى أمراض بأعجوبة عقب غضب كهذا، ولكن متى؟ وكيف؟ هذه مشكلات لا تفرضها التجريبية كما لا تطرحها كمشكلة. فالعالم الإسلامي سوف يشفى مع الزمن -بدون شك- من قابلية الاستعمار، وغضبته الحاضرة ضد الاستعمار ستساعده بالتأكيد، ولكن كيف؟ ومتى سيشفى؟ إذا لم يبن على وعي منهجي له مقدماته ونتائجه»[23].

هذا الوعي المنهجي الذي له مقدماته ونتائجه ينبغي، كما توجّه في الجزء الأول من «وجهة العالم الإسلامي» إلى دراسة تيارات الإصلاح، وفوضى العالم الإسلامي؛ تلك الفوضى الموروثة وتلك التي جاء بها الغرب وعمقت فوضانا، مما جعل الغرب يفقد مكانته أن يكون نموذجًا للخروج من التخلف، فإن الجزء الثاني انصب على دراسة تاريخية استشرافية في الوقت نفسه. حيث إن الجزء الثاني من «وجهة العالم الإسلامي» انشغل أساسًا بموضوع «المسألة اليهودية». فبن نبي قدّم استشرافًا مفاده أن اليهود «سيملكون العالم ويسودون في مجالات الحياة العلمية والسياسية والدّولية؛ في الوقت الذي كان اليهود لم يملكوا العالم بصورة كما هم عليه اليوم؛ فهو نوع من الحسّ المستقبلي الذي ينبني على تأويل الحاضر نحو المستقبل»[24].

هذا الاستشراف بناه على استقراء تاريخي لحركة الشتات (Diaspora) اليهودي نحو الغرب، واستقراره في أوروبا، وإسهامه في نشأة الغرب الحديث. وهذا أدى إلى نوع من التداخل بين الهوية اليهودية والحداثة في تاريخ أوروبا. وقد ركّز بن نبي على هشاشة الهوية الأوروبية قبل العصر الحديث، وهو ما سهل للشتات اليهودي المتجه غربًا اختراق المكون المسيحي لأوروبا، والدخول في بنيته الحديثة، وتهويد أوروبا؛ ليس على المستوى العقدية بتحويلها إلى الديانة اليهودية، ولكن بفهم اليهود للحاجة الأوروبية التي

تتطلّع لكل ما هو جميل ومفيد، فقاموا بتوفير تلك الحاجات بتكوين يهودي، حتى برزوا وبرعوا فيه، ومن ثم أمسكوا بمراكز سياسية واقتصادية وصناعية وإعلامية كبرى حتى أصبحوا مشرعين للقرارات المصيرية في أوروبا[25]، بل ومحورًا رئيسًا في تطوّر الحضارة الأوروبية. وهذا ما سعى بن نبي إلى تتبعه تاريخيًّا وتحليله نفسيًّا واجتماعيًّا، حيث كان يراه واضحًا جليًّا أمامه في 1951 كمسيرة مستمرة إلى نهاية القرن العشرين وتمهد لعصر جديد. على المسلمين أن يكونوا على وعي بالتحولات الحاصلة فيه للإسهام الإيجابي في الحضارة والخروج من وضعية التخلف والقابلية للاستعمار[26].

2. تهوُّد الحضارة الغربية الحديثة:

في سياق هذه الفكرة، فإن بن نبي ليس الوحيد من بين المفكرين المسلمين الذين قالوا بفكرة تهوّد الحضارة الغربية في مستوى قيمها ورؤيتها وعلومها ومنتجاتها الحضارية، فقد ذكرها المسيري وطه عبد الرحمن وغيرهم.[27] ولكنه يُعَدّ رائدًا في ذلك، حيث كتب عن الموضوع مبكرًا.

ففي مذكراته يذكر بن نبي اليهود وكيفية سعيهم للهيمنة الاقتصادية والسياسية والثقافية، بمساعدة الاحتلال الفرنسي الذي نزع من الأهالي الجزائريين أملاكهم ومنحها لليهود والمستوطنين الأوروبيين، وأعينهم على فلسطين.[28] ويبدو أن هذه الملاحظات التي سجلها وهو طالب، قد سجلها أيضًا في مذكراته وهو كاتب، عندما رأى سرعة استجابة الأوروبيين لشكاوى اليهود والمسارعة إلى حلها بينما لا يلتفتون إلى صرخات المسلمين في فلسطين أو في غيرها[29]، وهذا ما جعله يعيش حَيرة دفعته إلى طرح تساؤلات عنها، وقادته إلى ضرورة التتبع التاريخي لتشكيل هذا التأثير اليهودي في أوروبا. ولهذا يقول بن نبي: «إني كنت أرى في تاريخ (إسرائيل) ظاهرة محيرة: عندما أزفت ساعة الشتات، أي الخروج الثاني لهم خارج فلسطين، توجه اليهود نحو أوروبا التي لا تزال حينها متوحشة ودون تجارة، عوض التوجه نحو آسيا المتحضرة التي كانت تزدهر فيها التجارة».[30] وكان بن نبي يرى أن هذا السؤال لم يطرحه أي مؤرخ رغم أنه سؤال تفرضه طبيعة هجرة الشتات اليهودي نحو الغرب. يقول بن نبي: «لم يطرح أي مؤرخ هذا السؤال الذي بدا لي مسلّمة قطعية. وكان الجواب يفرض نفسه على ضميري. لقد أحس اليهود غريزيًّا أن نفوذهم سيكون في أوروبا، أي في البلدان الوحيدة التي يمكن لهم أن يسيّروا فيها الأفكار والرجال على هواهم»[31]

هذه الملحوظات التي سجلها في مذكراته عبر مراحل عمره –كما يذكر بلعقروز في مقاله القيم– قادته إلى الانتباه «إلى أهمية تجاوز المظاهر السّطحية المباشرة وتعميق السؤال حول البنية العميقة للأحداث والمَظاهر» عند «تفحّصه للظّاهرة اليهودية»[32].

وبالرغم من ذلك، فقد كان على وعي أنه يعالج مسألة فيها من الخفايا ما يصعّب مهمته، وقد يجعل الجيل المقبل يشكك في المعطيات التي يبني عليها تحليله واستشرافه. يقول بن نبي: «إنني المسلم الوحيد في هذه اللحظة الذي يحاول أن يترك للجيل الذي سيأتي مفتاح ما يُخفي الغرب من استبطان طبع عالمنا هذا الذي من حولنا... وحينما أستعمل عبارة الاستبطانوية هذه لمسيرة الغرب؛ فلست أعني هنا المعتقد الديني الغيبي الملازم للأشياء التي صنعت العالم الحالي، بل هو ذلك السر الخفي نفسه الذي يظهر ظلاً لبعض الرؤى، إنما لا يشفّ عن حقيقته، ومن المؤسف أن غبش رؤية ما سوف أشرحه في هذا القسم الثاني يتجلى خيالاً في حالات معينة أو يمنحها في حالات أخرى تفسيرًا ناقصا.»[33]

ولذلك، حاول بن نبي مقاربة «المسألة اليهودية» من منظورين متكاملين؛ منظور تاريخي يتتبع رحلة الشتات اليهودي إلى أوروبا، ومنظور نفسي اجتماعي يحلّل التحولات النفسية والاجتماعية التي رافقت هذا الاستقرار اليهودي في أوربا وأثره في الذهنية والنفسية الأوروبية، وفي واقع أوروبا العصر الحديث. وذلك ليصل إلى نتيجة يريد أن يبنيها في وعي المسلم المعاصر، ليعي واقعه وكيف يتعامل مع الغرب الاستعماري المتهوِّد ثقافيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا. والنتيجة التي ذكرناها هي قول بن نبي: «إن أوربا هي مهد العالم الحديث، لكن الحدث الرئيسي لكلمة أوربا في التَّاريخ هو وصول اليهود إليها كشخصية مستقلة عن الفكرة المسيحية، وهي التي سيطرت على سائر تسلسل حضارتها»[34]. وهذا بحقّ، نص مركز مكثف الدلالة عن هوية الحضارة الغربية الفعلية، ونتيجة تربط ربطًا قويًّا بين هوية أوروبا الحديثة وبين الفكر اليهودي والحضور اليهودي فيها.[35] وهذا الدخول اليهودي إلى أوروبا، يجده بن نبي بيِّنًا في مختلف جوانب الحياة في أوروبا، وفي مختلف المجتمعات الأوروبية، في المال، والعلم، والسياسة، والصناعة وغيرها.

لإثبات وجهة نظره في أثر هجرة الشتات اليهودي إلى أوروبا، يستعمل مالك بن نبي التتبع التاريخي لهذه الهجرة، ويرفقها بتحليل نفسي لأسبابها والتحولات التي صاحبتها في شخصية اليهودي نفسه، وفي تشكّل هوية أوروبا الحديثة. ولهذا فإن الاكتفاء بالأشياء الظاهرة يخفي عنا حقيقة أوروبا الحديثة ودور اليهود فيها. ولذلك يرى بن نبي أننا «لكي نفهم عالمًا ما لا يكفي أن ندرسه في مظاهره البادية فحسب، بل من خلال روحه التي تتوارى خلف مظاهره الرائجة».[36]

ويتعجب بن نبي من تغافل المؤرخين عن طرح سؤال عن مسوّغات توجه اليهود غربًا لا شرقًا، بالرغم من أن المنطق يقول: إن الشرق أقرب إليهم بحكم الارتباط الثقافي

والتاريخي. يقول بن نبي: «لم يسأل أي مؤرخ: لماذا أخذ الشعب اليهودي هذا الاتجاه دون سواه؟ علمًا أن الاتجاه نحو آسيا هو الأجدى والأجدر والأوفر لأسباب بادية؛ فاليهود ينتمون من حيث الجنس إلى أصل شرقي، ثم إن الرخاء التجاري والحضاري يحتم اختيار الانطلاق نحو مدن تتلاقى فيها عقدة الطرق التجارية والعالمية، كما هي حركة الانتقال بين الشعوب لألفَي عام بين الهند والصين، وهذه الطرق تتلاقى حين تمر بالضرورة عبر الشاطئ اليمني – الطريق البحري– أو عبر فارس وآسيا الوسطى عبر خطوط القوافل.»[37]

يعلّل مسار هجرة اليهود إلى أوروبا، الذي يعود إلى بدايات نشأة المسيحية ذاتها، بأن اليهودي بعد بداية الشتات لم يجد له موطئ قدم في الشرق؛ لأن الشرق تاريخيًّا كان متحضرًا ومتفوقًا من الناحية الثقافية والحضارية ولا يمكن أن يجد فيه اليهودي مكانة قيادية، رغم أنه يستطيع العيش فيه، ولكن ليس كقوة قيادية. ولهذا فإن فهم اليهود للشرق وثقافته وصلابته الفكرية والحضارية، دفعهم نحو الغرب بدلاً من البقاء في الشرق. فقد وجدوا في أوروبا بيئة ملائمة خصبة، إذ لم تكن أوروبا عند دخول اليهود إليها قد سلكت طريق التحضر بعد، ونجحوا في كسب تعاطف الغربيين وشفقتهم، رغم الماضي المتوتر بينهم بسبب الاعتقادات المسيحية.[38]

ثم يستمر بن نبي في تقديم مجموعة من التفسيرات المركبة، حيث يجمع بين العوامل الدينية والنفسية وتأثير الثقافة. وفيما يتعلق بتأثير الثقافة، يرتبط اليهود تاريخيًّا بالحضارة الآشورية والفرعونية، وهذا جعل صورهم الذهنية ترسم دائمًا صورة الخادم أو الشخص المنبوذ. ومن هنا، لا يرغبون في تكرار تجربة أجدادهم كعبيد، خاصةً وأن تحليل المؤرخين يؤكد هذه السمات بشكل مشابه[39]. وهذا يؤكده نص مهم لغوستاف لوبون يقول فيه: "ظل اليهود حتى آخر مرحلة من تاريخهم في أدنى درجة من الحضارة قريبين من دور التوحش الخالص، ولم يجاوز اليهود طبائع أمم الزراع والرّعاة إلا قليلاً جدًّا، وخضع اليَهُود لنظام رعائي، ولم يكادوا يدخلون دائرة التطور الاجتماعي"[40]، فمن الناحية الثقافية كانوا على هامش الأمم المتحضرة في الشرق.

أما من الناحية النفسية، فيتجه بن نبي إلى تحليل نفسية اليهودي الذي له بنية نفسية خاصة، تجعل منه لا يستطيع العيش في الشرق الممتلئ ثقافيًّا وحضاريًّا، وغير قابل للتوظيف لأهداف اليهود، ولهذا وجد اليهود في أوروبا في بداية تشكلها عجينة رخوة قابلة للتشكل وفق خصوصيتهم وتحقق أهدافهم في التأثير وعدم التأثر. يقول بن نبي: " فالشعب اليهودي له خصوصية معروفة جدًّا ولها موقعها في علم النفس الإنساني،

وخياره قد وجد مساحته كاملة في العجين الرخو البادي في طبيعة الأوروبي، وهذا هو السبب الأكيد في خيار لا محل له في طبيعة الشرقي على الخصوص، فالرجل الشرقي يعيش روحه وفكره وينظر إلى علاقاته مع الآخر من فكره».[41] ففي تلك الحقبة التاريخية، لم يكن للغرب ماض ثقافي قوي يقدم نماذج واضحة للرؤية أو التصنيف؛ لذا، أدرك اليهود أن الشرق لا ينظر إليهم على أنهم مجتمع خلو من أيّ هويّة ثقافية، بل يُنظر إليه من خلال نموذج ثقافي معين يعكس دلالاته، وكيفية استخدامه لإخفاء هذه الهوية وتمويهها. بالإضافة إلى ذلك، كان لدى اليهود تحفظ كبير حيال التعريف بانتمائهم الديني، وبخاصة في بدايات وصولهم إلى أوروبا، بسبب الكراهية الصامتة والغريزية التي كانت تحيط بهم[42].

لا ينفي بن نبي أن اليهود في بدايات وجودهم في أوروبا كانوا يسكنون الجيتو (Ghetto) على هامش المدن الأوروبية، ولكن مسار تحولهم من الهامش إلى المركز أخذ ألفَي سنة تقريبًا، ليتحولوا إلى مركز الحضارة الغربية وعقلها وروحها، حتى صار الجيتو "شيئًا فشيئًا في قلب لندن، وعقل أمة، ومرجع الإمبراطورية»[43] في أوروبا كلها لا في لندن فقط.

هذا التحول منذ بداية الهجرة اليهودية إلى أوروبا حتى تحول اليهود إلى قوة صانعة لهوية أوروبا الحديثة يرصده بن نبي من خلال تحويل الهوية المسيحية لأوروبا إلى هوية علمانية؛ ليستطيع اليهودي الخروج من عزلته في الجيتو إلى تحقيق مواطنة يستوي فيها مع المسيحي، ثم تطور الأمر إلى سيطرة اليهود على المال والأعمال والصناعة والفكر والعلم والسياسة إلى الحد الذي وصلنا إليه اليوم، حيث تبدو أوروبا ذات روح وعقل يهوديين، تستجيب لمطالب الكيان الصهيوني ولرغبات اليهود بلا تردد؛ لهذا يدعونا بن نبي إلى أن نتابع «خطوة خطوة مسار اليهودي وشرطه الأولي في الولوج في عمق أوروبا وصولاً إلى سدة قيادته الحالية، وعلينا أن نمسك بالمراحل الخاصة التي سوف تقوده يومًا ... إلى فلسطين، وهو اليوم الذي عرفه جيلنا.[44] إن بن نبي هنا يدعونا لتتبع «اليهودي التائه في نفسية الأوروبي»[45]، الذي دخل من باب الشفقة التي يشعر بها الأوروبي نحوه، ويسمح له بالعيش في الجيتو؛ ليتحول بعدها إلى «محور في تطور الحضارة الغربية»[46]، ويؤثر في مختلف مجالاتها. ويذكر بن نبي نماذج كثيرة على تأثير اليهود في أوروبا؛ في قطاع المال والأعمال، وفي الأكاديميا، والصناعة، وغيرها.

ويستعرض بن نبي أمثلك كثيرة ليدلل على هذه الحقيقة، حيث يظهر تأثير اليهود في المجتمع بوساطة المال والصناعة، حيث يكون اليهودي هو صاحب العمل و«وراءه

سائر البنوك التي أنشأها جدوده في كل مكان، وهي دائمًا خلف تقدمه، فلديه أبناء هم المؤسّسون، سواء كانوا في باريس أم لندن، وآخرون في برلين، ومن ثم آخرون في نيويورك؛ فمورجيو في (City) ؛ وهو ابن عم مورجان في (wall Street) وروتشيلد باريس هو ابن عم روتشيلد لندن، و(Shneider du Chreusot) هو ابن عم (schiffer) في نيويورك، وفي كل مكان لديهم أبناء عم، ولكل منهم اختصاص. فروكفلر هو ملك البترول، وواحد من أبناء عمه لا بد أن يكون ملك شيء آخر.»[47] وغيرها من شركات المال والصناعة في فرنسا وأروبا عمومًا، مثل شركة ستروان وغيرها.

وكذلك في الميدان الفكري والفلسفي والعلمي، في كامل أوروبا، فنجد هذا التأثير في هولندا منذ إسبينوزا وكتابه في الأخلاق وفلسفته «التي سوف يبتنى عليها من الوجهة النفسية؛ ضمير عصر استعماري»[48]، ونجد هنري برغسون، وأندريه موروا، وسارا برنار، وماري كوري وغيرهم في المجتمع الفرنسي. و«هكذا نرى في هولندا الحالة نفسها في انتشار اليهود كما في أمريكا، ويكفي القول: إن هذه البلاد أصبحت ملجأ ليهود العالم، كما أن الذين تركوا البلاد التي وُلِدوا فيها لسبب أو آخر قد استقبلتهم أمريكا بانفتاح، فأينشتاين الذي طرده هتلر من الجامعة الألمانية استقبله(Princeton).»[49].

والأمر يتعدّى إلى جوانب أخرى من الحياة الأوروبية، وبخاصة القيادات السياسية والمالية والصناعية. وكما هو الأمر «في فرنسا فكذلك في بريطانيا؛ كبار القادة والماليين

والصناعيين والأكبر اختصاصًا في الطب، ثم إن الخياط الأفضل في بريطانيا هو بصورة طبيعية يهودي»[50]، وفي إنكلترا يبدو الأمر أكثر وضوحًا، حيث «يبدو الانتشار اليهودي أكثر دلالة في الماسونية»[51]. ليس ذلك فحسب، فإن أمريكا ذاتها بحسب بن نبي ما هي إلا مزرعة يهودية، بل إن «(Wall Street) حيث سيطر الدولار في العالم الحاضر هي يهودية كما هي (City) في إنكلترا. فقد خيّم اليهود في أمريكا على مساحة السلطة السياسية في الممارسة العملية، فيما تركت الواجهة لروزفلت وسواه، واليوم تُدَار السياسة الأمريكية عبر يهودي (Bariel).».[52]

ويعقب بن نبي على ذلك بأنه يشير إلى المشهورين فقط، وأنه يذكر أمثلة مختصرة فقط. بقوله: «هكذا نرى أمامنا قائمة من القيادات اليهودية في مختلف المواقع والميادين لها دلالتها ومعناها، وأنا هنا أشير إلى المشهورين، وأتجاوز الحديث عن الآلاف التي تترافق بالضرورة مع الانتشار المتسارع لليهود، ويأتي في المقدمة الإنتاج السينمائي والصحف الكبرى»[53]

3. أصناف اليهود في منظور بن نبي:

يشير بلعقروز إلى فكرة سائدة عن اليهود، وهي اعتقاد الكثيرين أن اليهود هم جماعة واحدة، لهم آراء وثقافة واحدة. غير أن التحليل العميق يظهر حقيقة مغايرة، إذ يُظهر أن اليهود مجموعات متعددة بدلاً من جماعة واحدة. ولكن بين هذه الجماعات رابط يوحّدها، وهي الإيمان المشترك بالأرض الموعودة والوطن المفقود، بينما تختلف هياكلهم وتنظيماتهم بشكل متباين.[54] وهذه الفكرة التي ذكرها بلعقروز نجدها واضحة في أطروحة بن نبي عن "المسألة اليهودية" حينما نبه على ارتباط يهود الشتات برباط نفسي يوحّد مختلف قبائلهم وأصنافهم. حيث يقول بن نبي: "لفهم نفسية يهودي في الشتات؛ هناك شيء أساسي هو أن اليهودي لا يترك وطنه نهائيًا دون أمل في العودة إليه. فالوطن هو الأرض الموعودة لأجداده وأحفادهم، وهو يتمثّله عودة نهائية إليه في فكره وأحلامه؛ لأنه القطب الذي يشده إلى قدره».[55]

وهذا الرباط النفسي والحنين إلى الوطن الموعود في رأيهم، هو ما يجعل اليهودي حيثما كان يوالي اليهودي الآخر في أي مكان وُجِد، عبر مختلف أجيال الشتات. ويمكن ملاحظة ذلك في واقعنا اليوم لنرى «كيف أن اليهودي الأمريكي والإنجليزي والألماني يلتقي في فلسطين مع يهودي شمالي إفريقية...»[56]. وهذا ما دعا بن نبي إلى محاولة تصنيف اليهود في أوروبا أصنافًا عديدة. ولكن ما ينبغي الانتباه إليه أن بن نبي نظر إلى هذه الأصناف المتعددة لليهودي في أوروبا من منظور مسار التطور التاريخي للحضور

اليهودي في الحضارة الغربية، وكذلك من منظور نفسي يبين في كل صنف ما تتميز به شخصية اليهودي بحسب المرحلة التاريخية.

وهذا التقسيم يمثل «تسلسل الاندماج الاجتماعي الذي سلكه اليهود وطبيعة انخراطهم في الدول الغربية، بحسب تطوّر تلك الحلقات النفسية التي مرّ بها اليهودي».[57] ويمكن وضع هذه الأصناف أو التقسيمات كما في الجدول الآتي:[58]

أ. اليهودي التائه:

يتزامن وجود هذا الصنف مع عصر ما قبل النهضة في أوروبا. في هذا العالم الذي وصل إليه اليهود، يجد اليهودي نفسه أمام صراع داخلي في ضمير المسيحي؛ إذ يُعَدّ أولاً قاتلاً للمسيح، وفي الوقت نفسه فهو يحمل مسؤولية وعد الله لإبراهيم وذريته. ولذلك لم يرغب اليهودي في هذه المرحلة أن يكون معروفًا، ولا يمكنه الاندماج في المجتمع الأوروبي إلا إذا كان وجوده يلفّه الغموض والأسطورة. المسيحي الذي يلتقي به يتجاهله غالبًا ويظهر إشارات الصليب التي تبعد الروح الشريرة. واليهودي هنا يعرف أنه محط كراهية. وأمام الشعور الذي ينتابه بسبب ما تُغلّف به حضوره بنظرة الشك والازدراء في عيون المسيحي، بدأ يبث في إحساس الأوروبي أسطورة اليهودي الهائم على وجهه، بدلاً من صورة اليهودي الجشع الدنيء المثير للاشمئزاز. وبهذا النحو، انتقل إلى صورة عاطفية تثير الشفقة والرحمة نحو اليهودي الذي يهيم على وجهه جزاءً على خطاياه بدون استقرار.[59] وهنا يكمن التحول النفسي الأول الذي حدث في نفسية الأوروبي تجاه اليهود.

ب.اليهودي المثقف:

مع بداية عصر النهضة، وبداية ظهور العلمانية، وجد اليهود فرصة للإسهام في ميادين النهضة الأوروبية التي كانت تُبرز أسماء يهود في واجهتها. وهنا يبرز تجميع الطاقات اليهودية، والإسهام في "تكوين الأفكار في أوروبا، وعلى الخصوص فكرة الاستعمار... التي ترتكز على الكراهية لكل ما هو آسيوي، وهي ردة فعل مزدوجة: الكراهية لآسيا وللإسلام معًا»[60]. هذا الانخراط اليهودي في الحياة الثقافية الأوروبية في عصر النهضة، حقّق لهم هدفين مهمين؛ أما الهدف القريب فهو الخروج من عزلتهم المعنوية داخل الجيت، وأما الهدف البعيد المدى فهو إدارة الحياة الفكرية الأوروبية الوليدة بكاملها. والمجتمعات الأوروبية التي فتحت أبوابها لليهود الذين كانوا بؤساء ومساكين، فإن ازدياد عددهم، واستمرار انخراطهم في الحياة الثقافية جعلهم يتبوّؤون المكان الأبرز في الحياة الثقافية والفكرية منذ عصر النهضة الأوروبية.[61]

ت. اليهودي المواطن:

للتخلّص من الصورة النمطية التي كان عليها اليهودي في الضمير المسيحي، واستغلالاً للشفقة والرحمة تجاهه من قبل الأوروبي، زاد اليهودي سعيه للخروج من نمط الحكم القديم القائم على الروابط المسيحية بين الحاكم ورعيته، وأسهم في الثورة الفرنسية، وإعلان حقوق الإنسان، والدعوة للمواطنة، ليتحول من ساكن الجيتو المسكين المستحق للشفقة أو اليهودي الخبيث المشكوك فيه إلى مواطن كامل الحقوق، بل حتى الأسماء جرى تغييرها. «فإعلان حقوق الإنسان والمواطن كان لازمًا في إطار خطة عمل اليهودي في العالم، وهو الأكثر أهمية إذا ما اعتبر في فرنسا في مستوى القانون كي يعمل في ظله. من خلال هذه الصفة (المواطن) كان اليهودي قد أخذ من سائر أوروبا بعض لون الأرض التي يعيش فيها، ولن يُسمَّى أحد بعد ذلك باسم دافيد، إسحاق، إسرائيل، بل دزرائيلي أو ابنهايمر أو فرنسيس دكرواسي».[62]

ث.اليهودي الحديث:

يؤكد بن نبي ما ذكرناه سابقًا، حينما بيّن أن اليهودي مهما كان فإن هناك رابطة نفسية تربطه بغايته النهائية ووطنه الموعود؛ لهذا يقول بن نبي في سياق تحليله لنفسية اليهودي الحديث: «ستكون كلمة (الحديث) بالنسبة لليهودي لا معنى لها؛ لأن اليهودي كالأشياء الثابتة مع الزمن لا عمر لها؛ لأنها لا تتغير أبدًا. فاليهودي الآن أصبح مواطنًا قد نزع عنه اللحية واللباس وكل ما يميّزه كيهودي، لكن أفكاره هي نفسها على مر الزمن»[63] لكن هذه المرحلة شهدت تحول اليهود إلى أرباب أعمال، «تحت قناع النظام الاجتماعي الأوروبي، ومن تهويد الديمقراطية للمساواة إلى الطموح على رأس التراتبية»[64] وكونهم صلوا إلى رأس معظم الأعمال جعل منهم المخططين لما تعمل عليه أوروبا، حتى صار «تنظيم أوروبا الإداري تحت إشراف يهودي»[65].

ج. اليهودي المذهبي المتزمت:

يعطي بن نبي ملحوظة مهمة جدًّا في عمل اليهودي، وهو أن «عمل اليهودي يبني وبذور تهدمه في تضاعيف بنائه»[66]. وهنا يجيبنا بن نبي أن اليهود الذين ابتدعوا الرأسمالية، وجدوا أنهم سرّعوا مسارها بما لا يحقق أهدافهم، ولهذا فإنهم كانوا في حاجة إلى أيديولوجيا مضادة لها، وهنا تأتي الماركسية. «فاليهود هم الذين ابتدعوا هذا العالم الرأسمالي. وإذا غدا شيوعيًّا ووطنيًّا واشتراكيًّا فذلك لأنهما جملتان مختلفتان لرد فعل واحد. وهكذا أصبح العالم متهوِّدًا، لكن اليهود رأوا أنهم استعجلوا نتائجه

هذه بما ليس في خطتهم حينما واصل تطوره الطبيعي، وهكذا بدا وكأنما اليهود ضد عملية التهويد هذه، فعمدوا إلى تحويل طريقها بما سارع إليه ماركس»[67] فالحاجة كانت ملحّة إلى أيديولوجيا متزمتة كالماركسية؛ لأن سيرورة الرأسمالية اتجهت خارج ما كانوا يسعون إليه، لكبح جماحها.

ولهذا كما يقول بن نبي أن ماركس رأى «أن ثمة خطرًا يداهم إمبراطورية عنصره، وهكذا قيد المسار حينما طرح كتابه (رأس المال) كمعيار عقدي كي يضيف إلى الرأسمالية نتائج في مصلحة مملكته اليهودية. فالماركسية في الأساس كنظام جاءت تبطّئ بالثورة القادمة لأغراض تتصل بالمصالح في المملكة اليهودية.»[68] ويستدل بن نبي على ذلك بالمساعدات التي قدّمها كبار رجال المال والبنوك والأعمال الرأسماليون الغربيون في أوروبا وأمريكا للثورة البلشفية في شكل قروض ومساعدات مادية في الوقت الذي كانت فيه غير قادرة على الاستمرار.[69]

ح. اليهودي العالمي:

ما ميّز شخصية اليهودي في هذه المرحلة هو تسلّم قيادة الحضارة في أوربا، في شتى الميادين التي ذكرناها سابقًا عند تشكيلهم روح أوروبا وعقلها، وتذكير الأوروبيين بدور اليهود في نشأة إمبراطورياتهم الاستعمارية وتوسعها. ويعتبر بن نبي أن ذلك ظهر جليًّا مع الرسالة التي أرسلها الكنيس العالمي للشعب الهولندي، التي جاء فيها: «يُرجَى من الشعب الهولندي ألا ينسى أن اليهود هم الذين أقاموا إمبراطورية هولندا الاستعمارية، فأصبحت الإمبراطورية هي الأغنى».[70]

بل إن بن نبي يرى أن هذه المرحلة بدأت مع استقرار آل روشيلد في باريس، «ومنذ ذلك التاريخ يصح التساؤل كم من هؤلاء العلماء الكبار يستطيعون إدراك أن ترومن ليس سوى صورة، وأن باروخ وارث روتشيلد هو الملك الحقيقي الذي يسير جمهورية الولايات المتحدة!»[71]. وهذا الرأسمال المتحكم في أوروبا وأمريكا هو التعبير المحسوس المادي عن «سيطرة اليهود على العالم»، وهو الذي يشكل روح الرأسمالية الغربية.[72] فاليهودي العالمي مؤشّر على أن اليهودي صار يتحكم في رأسمال العالم، ويوجه الحركة الاستعمارية الغربية. وهو في ذلك محكوم بفكرته الأصلية الاستعلائية العنصرية. أو كما يقول بن نبي: «فاليهود رأوا في العالم طبيعتين من الكائنات: اليهود وهم الشعب المختار، والحظيرة وهي التي يُحشَر فيها عموم الجنس البشري الغوييم»[73]. ومن هنا زرعوا في الثقافة الأوروبية العنصرية وأنتجوا الاستعمار.

خ. اليهودي الذي رمى القناع:

أما الصنف الأخير، فهو اليهودي الذي رمى القناع، بعد ألفَي سنة. وفي هذا يقول بن نبي: «هكذا ألقى اليهودي بالقناع بعد ألفين من السنين، وكما خرج اليهودي من الجيتو ليصبح مواطنًا في بلد أجنبي ها هو اليوم يخرج من الظل، من الخيال»[74] وهذا يخرجه من الهامش، ويجعله يعلن ميلاد دولة «إسرائيل» وجنسيتها، و«بقدر هذه الجنسية أعلن نفسه مؤلف ومعلم العصر الحديث...»[75] . وبهذا الإعلان، ونزع القناع، يعلن اليهودي نهاية عصر اليهودي المتخفي الهامشي إلى اليهودي مركز العالم الذي يجعل العالم كله في خدمة جنسيته في «إسرائيل».

وبالرغم من أن هذه الهيمنة اليهودية على أوروبا، فإنه كما يقول بن نبي: « كثيرًا ما تسير الأفكار إلى أبعد من العقل الذي ابتكرها»[76]. فإن هذه الإمبراطوريات الأوروبية الاستعمارية التي أسهم اليهود في تأسيسها، صاروا هم ضحية لها، وبخاصة مع تطور القومية والولاء للجنس الآري، وهذا جلب انتباه بعض من الأوروبيين كما فعل هتلر، وحاول القضاء على النفوذ اليهودي، غير أنه أخفق كما يرى بن نبي؛ بسبب أن هتلر نفسه استعمل شعاراتهم ومفاهيمهم أنفسهم كالعنصرية والاستعمار اللذين هما «الخلاصة اليهودية التي تختصر كل تاريخ الدياسبورا».[77]

إن هذا التحليل الذي قدّمه مالك بن نبي للمسألة اليهودية، يذكّرنا بما قام به بعض المفكرين الذين جاؤوا بعده أمثال إسماعيل راجي الفاروقي[78]، وجمال حمدان[79]، عبد الوهاب المسيري[80]، لكن تحليل بن نبي كان سباق لكل تلك الجهود، وهو تحليل لتطور التمركز اليهودي في أوروبا، والتحولات التي حدثت في مسارهم، يكشف بوضوح الثقافة الواسعة التي لدى بن نبي عن هذا المسار التاريخي لليهود، وإستراتيجياتهم في السيطرة على الشعوب والثقافات الأخرى، بالإضافة إلى الاستعدادات النفسية والميول الثقافية التي مكّنتهم من التحكم بالحضارة الغربية الحديثة. ولذلك فإن هذين التحليلين التاريخي والاجتماعي النفسي مهمّان جدًّا في فهم الظاهرة الصهيونية وهيمنتها وبسط نفوذها وكيفية التعامل معها، رغم مرور أكثر من نصف قرن على ما كتبه بن نبي.[81] ويعطينا مفاتيح من خلالها نتمكن من التعامل بفعالية مع السيطرة اليهودية على الحضارة الغربية، والوعي بكيفية تفكيك هذه السيطرة، لحماية الإنسانية من عنصريتها، والإسهام في تحقيق السلام العالمي واستعادة دور المسلمين اليوم.

ثالثًا. الدور الحضاري للإسلام في مواجهة آثار تهود الحضارة الغربية:

كما ذكرنا في الصفحات السابقة، لم يستطع اليهود أن يجدوا لهم مكانة تمكّنهم من تحقيق هيمنتهم في الشرق كما سبق القول في العنصر السابق؛ لأن شعوب الشرق كانت عريقة في الحضارة، ولها وعي بذاتها الحضارية التي لا يمكن تطويعها لمصالح اليهود؛ لهذا توجهوا إلى أوروبا في بداية تشكّلها؛ لأنها كانت خِلوًا من الحضارة، وعجينًا رِخوًا قابلاً للتشكل على أيديهم. والأمر الأكثر وضوحًا في عدم قدرة اليهود على اختراق الشرق هو الإسلام ذاته والحضارة الإسلامية. يقول بن نبي: «إن العربي يحمل في دعوته للإسلام نظامًا جديدًا ذا عمق ديني يخالط الروح في الصلة بين الفاتحين والأهليين الذين تبلغوا الدعوة، ولا يترك أي موقع للعبقرية المادية لدى اليهودي»[82]. ولذلك وجد اليهودي منافسًا خطيرًا لطموحاته في الهيمنة، «وبخاصة في الأندلس؛ لذا ألزمته الحقبة الإسلامية التوقف في طريقه؛ لا يستطيع النفاذ إلى أهدافه إلا ثغرة دسّ خفيّ ينفذ منها إلى هدم الحضارة والإمبراطورية الإسلامية، فالعربي في دعوته الروحية كالقرطاجيين القدماء في مكانتهم الاقتصادية والتجارية؛ كلاهما منافس خطير لمسار الشتات اليهودي التاريخي»[83].

غير أن هذا التوجه اليهودي إلى أوروبا جعل بن نبي يتتبعه تاريخيًّا ونفسيًّا، ويرى إسهامه في الحضارة الغربية إلى أن صار روحها وعقلها، حتى أورثها الاستعمار والعنصرية، وجعل العالم يعيش حالة صراع واستقطاب يكاد يقضي على الحضارة الإنسانية. وقد شهد بن نبي قيام الحربين العالميتين، ومخاطر الصراع النووي، وما يهدّد البشرية. وفي الوقت نفسه كان يرى أن اليهودي الذي وصل إلى نزع القناع وإظهار ذاته، ينذر بنهاية عصر وبداية عصر جديد، على المسلمين أن يكون لهم فيه دور محدد، ويقدموا الإسلام ملاذًا للإنسانية يحفظها من العنصرية والاستعمار بما يملكه من قيم عالمية وروح المساواة بين البشر ورفض للعنصرية.[84]

ولكن بحسب بن نبي، فإن هذا الدور ينبغي أن يعالج ثلاث قضايا حتى يتمكن المسلمون من تقديم الإسلام حلًّا لمعضلات الحضارة الحديثة، ويستعيدوا حريتهم ودورهم: أولها الخروج من الثقة الحالمة بأمريكا والأمم المتحدة، وثانيها النظر إلى القضايا من منظور أنها قضايا حضارية، والثالثة التبشير بالإسلام باعتباره الملاذ الروحي الوحيد للإنسانية التي أفقدتها الحضارة الحديثة روحها.

1.الخروج من الثقة الحالمة بأمريكا والأمم المتحدة:

يسجل بن نبي ملحوظة مهمّة بعد نهاية العرب العالمية الثانية، فانتصار أمريكا، ونشأة الأمم المتحدة، أدى بالسياسة الإسلامية إلى «الاعتماد على الأيديولوجيا الأممية؛ أي الثقة الكاملة بهيئة الأمم المتحدة»[85]، كما أن انتصار أمريكا في الحرب العالمية الثانية زاد من اعتماد العرب على القوة الأمريكية، بالرغم من أن العالم الإسلامي لم يخرج من الاستعمار بعد.[86]

ولكن هذا الانحياز إلى أمريكا، كان لا شعوريًّا ضد روسيا. غير أنه انحياز عاطفي حالم؛ لأنه اعتمد على «المواقف التي تسوقها الظروف... والأحلام التي تسوقها الشعارات»[87] وهذا جعل السياسة الإسلامية تمثل «تناقضًا في الوسائل والأفكار»[88]؛ لأن هذه الثقة في الأمم المتحدة والانحياز لأمريكا لم يخدم السياسة الإسلامية وهي «تعالج القضية الفلسطينية... فمنذ أعلن بن غوريون الدولة الصهيونية؛ أعلنت أمريكا الاعتراف بها في منتصف ليل اليوم نفسه، والباقي كله سار في طريقه عبر الأمم المتحدة التي غدت ضد مصالح العالم العربي وحقوقه وآماله... وهكذا ما إن أعلنت دولة «إسرائيل» حتى كان التسلح يأتيها من سائر المرافئ الأوروبية»[89].

فالرومانسية السياسية في العالم العربي -كما يسميها بن نبي- التي حلمت بالأمم المتحدة، بدون مجهود يُذكر في التعامل مع الأزمات الدولية، تجد نفسها تأخذ موقعًا هامشيًّا في الساحة العالمية كشريك متميز أو حتى تحقيق أهداف محددة. وهكذا، فإن الثقة بالأمم المتحدة انهارت بسرعة، من دون أي جهد لإصلاح الثقة بها. تلاشى الإيمان بها فجأة وبدون أي استعداد، ولم يتم دراسة لإصلاح الثقة المتصدعة بدور الأمم المتحدة. فالسياسة العربية اعتمدت منذ البداية على تبني المواقف استنادًا إلى الفرص المناسبة، حيث أسّست جذورها على مزيج من الخوف والاحترام للقوة الأمريكية. فالخوف من الولايات المتحدة كان العامل الرئيس الذي ساد في السياسة العربية، وظهر ذلك في الثقة العمياء بدور الأمم المتحدة كوسيلة للتأثير في السياسة الدولية، ولكن هذه الثقة اختفت كريشة في عاصفة من التغيرات السياسية العالمية.[90]

هذه الثقة الرومانسية بالأمم المتحدة والاحترام والخوف من أمريكا- أفضت إلى تسليم فلسطين لـ«إسرائيل»، بينما هذا الاحترام وهذا الخوف من أمريكا أصابتهما الحرب الكورية في خمسينيات القرن العشرين في مقتل، إذن فـ«القوة الأمريكية ليست هي القوة التي لا تندحر، والفلاحون في كوريا الشمالية في جيشهم البدائي؛ أعطوا المثل بما يهدم أوهام العالم، والعالم الإسلامي على الخصوص»[91].

ولكن ينبه بن نبي على أن الدبلوماسية الغربية بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم تسعى إلى إدخال العرب والمسلمين في الصراع، وجعل العالم الإسلامي ساحة حرب، وتعطيل كل فرصة مادية أو فكرية أو أخلاقية، في مصلحة المسلمين، وهذا ما ينبغي الانتباه له.[92] ولهذا دعا في كتابه (فكرة الإفريقية الآسيوية) الذي كُتِب بعد كتاب «المسألة اليهودية»، ولكنه نُشِر قبله- إلى ضرورة أن يتمّ تنسيق جهود العالم الإسلامي مع جهود شعوب آسيا وإفريقيا، والاستقلال في المواقف عن التبعية لأمريكا أو لغيرها؛ لأن العالم «خضع لسيطرة أوروبا الأخلاقية والسياسية منذ قرنين من الزمان»[93] وهذا جعل من الأوروبي خاصة والغربي عمومًا سببًا للمأساة الإنسانية؛ لأن هذا السيطرة وضعت كل موارد الإنسانية تحت تصرف الغربيين، وأحدثت أزمة في الضمير الإنساني، وغرست فيه العنصرية. وهكذا «خصص الغرب نظرته بالنسبة إلى المبادئ كما خصصها بالنسبة إلى الرجال، فإذا بنظرته إلى ما هو أوروبي تختلف عما ليس كذلك، فهو يرى بصورة طبيعية مشكلات أوروبا ورجالها، أما حين ينظر إلى مشكلات الشعوب الأخرى، أو حين ينظر إلى هذه الشعوب نفسها فإنه يضع نظارة على عينيه، وإذا بهذه النظرة غير المباشرة لا تتصل بقيم الأخلاق أو بقيم السياسة».[94]

وهذا ما يقتضي التعاون مع الإطار الأوسع للإنسانية في إفريقيا وآسيا وحتى أمريكا اللاتينية، بعيدًا عن هيمنة النظرة الغربية وسياساتها العنصرية الاستعمارية، وعن مركزية أمريكا فيها، بوصف أمريكا هي الممثلة للعنصرية والمركزية الغربية اليوم.

2. النظر إلى القضايا على أنها قضايا حضارية:

يُفرِد بن نبي القسم الثاني من كتابه لتناول التحولات التي حدثت والمتوقّع حدوثها؛ لتنبئ بنهاية عصر وبداية عصر جديد. حيث بدأت الإشارات تتكشَّف عن نهاية العصر الحديث، وسينهار تدريجيًّا مع ولادة عصر جديد. وسيظلُّ أثر الحروب القادمة وتدفُّق دماء الملايين خالدًا في ذاكرة الشعوب، باعتبارها النتيجة الوحيدة لصفحات التاريخ التي خلَّفها العصر السابق. وهنا يتساءل بن نبي عن العالم القادم الذي ما يزال غامضًا، فمن سيكون مسؤولاً عن رسم ملامحه وتحديد مستقبل الإنسانية؟ وهو سؤال يثيره المسلمون لما يواجهون من مصير، كما كان يتبوّأ الاهتمام في الفكر اليهودي. وبغض النظر عن كيف يكون العالم الجديد، فإنه سيجد نفسه مجبرًا على التعامل مع خصائص متنوعة وموروثات واضحة. بعضها يشكِّل إرثًا من عالم سابق، وبعضها الآخر ينبع من واقع وجوده المستقبلي كما يقول بن نبي. ولفهم هذا الإرث ودوره في المستقبل، يجب التفكير فيما جرى وما زال يتعين القيام به، لنحدد دورنا في العصر الحديث. وهنا يعيد

بن نبي التذكير بخصائص العصر الحاضر الذي أسهم اليهود في تشكله وإعطائه روحه وعقله. وهي خصائص حقّقت أهدافها كما يرى، وهي: أن هذا العصر الحاضر؛ عصر يهودي، ورأسمالي، واستعماري، وعنصري، ومتمركز أوروبيًّا، ومادي، وتكنولوجي، ومسيحي.[95]

لكن هناك ملحوظة يرى بن نبي أنه ينبغي فهمها من الواقع الذي نعيشه، وهي "غياب الدين، وبدونه فإن حضارة ما غير ممكنة، فالمسيحية قد أدت مهمتها الحضارية في العالم الحديث، لكن محورها الذي عرفته سيترك المكان خاليًا لدين جديد لا بد أن يملأه؛ كي تستعيد الحضارة دورها ورسالتها، أما المادية فلن تحمل أيّما إيحاء لروح إنسانية»[96].

فالحضارة الإنسانية تعاني فقدان الروح، ولا يمكن أن تكون المسيحية ولا اليهودية ولا الأيديولوجيات التي تسببت في أزمة العالم الحديث أن تكون تلك الروح، من أجل إنقاذ الحضارة واستمرارها. وهنا يأتي دور الإسلام؛ لأن له النزعة التخطيطية، والقدرة على استيعاب الأيديولوجيات الموجودة وتصحيحها، وبخاصة الاشتراكية والرأسمالية، ويتفادى اختزالاتها ومشكلاتها، كما يجسد الإسلام العالمية. فالإسلام «دين قادر في تكوينه على تصحيح الرأسمالية وتعديلها، وكذلك الشيوعية ومحو العنصرية والاستعمار ليأخذ على يد اليهود في إدارة العالم. وهكذا نرى دور الإسلام في عالم جديد؛ يعتمد على قيمته الداخلية بقدر ما للقيمة الروحية وفاعليتها من قدرة على استيعاب مخلفات عصر مضى في تجدد الحضارة الإنسانية.»[97] من هنا يأتي دور الإسلام في إنقاذ الحضارة، من العنصرية والأيديولوجيات التي أفقدت الحضارة روحها، وكذلك تقليص دور اليهود الذين هيمنوا على إدارة العالم. ويمكنه أن يشكل «مركز العالم الحديث حيث محت الحضارة التكوينات والأوضاع الأخلاقية التقليدية، حين فرضت تكويناتها وأوضاعها الصناعية، فخلقت بذلك فراغًا روحيًّا هائلاً».[98]

3. الإسلام الملاذ الآمن للحضارة الإنسانية:

يرى بن نبي أن الحضارة التي فقدت روحها بفعل العنصرية والاستعمار والرأسمالية والأيديولوجيات الأخرى المرتبطة بها، التي أورثها اليهود للحضارة الغربية الحديثة- في أمس الحاجة إلى شرط ضروري يعيد لها أمنها وسلامها، ويتجاوز بها الحروب والصراعات، ويحقق السلام العالمي. وهذا الشرط هو الإسلام. وفي هذا يؤكّد بن نبي قائلاً: «تزداد الحاجة - كما لم يكن من قبل - إلى روح جامعة، روح لها دورها الفاعل في حل المشكلات في سلم عالمي، حيث الحضارة في هذه المرحلة لا تختصر في قارة أو جنس، بل تشمل الإنسان على اختلاف الألوان والأنفس كما هو التعبير القرآني.

ففي قائمة القيم الروحية الحالية... يبدو الإسلام وحده هو المؤهّل لمستقبل رسالة تفي بشروط البقاء على هذا الكوكب لسائر الأجيال المستقبلية»[99]؛ لأنه «رسالة عالمية»[100]، وهو «الذي يمتلك من المقومات الحضارية ما يعالج به مشكلات العالم... وتحقيق الأمن والسَّلام العالمي للإنسانية، وتحقيق العدالة والتوزيع العادل للثروة، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ورحمته».[101]

ولكن بن نبي يستدرك على هذا التفاؤل بإسهام الإسلام في الحضارة وكونه ملاذًا آمنًا للبشرية، بقوله: «لكن إمكانية كهذه لا تحمل أي تأكيد»[102]؛ لأن هذا الإمكان أو الاستعداد الذاتي للإسلام أو ما يسميه بن نبي: «القيمية العينية الأصيلة للإسلام» مرتبط بشروط على المسلمين تحقيقها، كما حققها جيلهم الأول في بداية انتشار الإسلام، وإلا فإن العالم الإسلامي «يمكن أن يُخفِق إذا لم يلتزم بالمعايير والمعطيات الداخلية والخارجية للمشكلة».[103]

وهنا نعود إلى النقطة الأولى التي ناقشناها في هذا البحث، وهي أن بن نبي يربط معالجة «المسألة اليهودية» وآثارها السلبية على الحضارة الغربية خصوصًا والحضارة الإنسانية عمومًا، بالمشروع الحضاري للعالم الإسلامي، المتمثل في تحقيق نهضته عن طريق مسارين متكاملين للتخلص من التخلف؛ هما مسار نزع القابلية للاستعمار، ومسار

مقاومة الاستعمار وآثاره في الإنسانية وفي العالم الإسلامي، ثم تقديم الإسلام للإنسانية في صيغة مشروع حضاري يقوم على التخطيط الشامل؛ الداخلي والخارجي.

وفي سبيل ذلك على المسلمين اليوم ألا تغيب عنهم الرؤية الواضحة للظواهر المعقدة اليوم، وبخاصة الاستعمار الذي رحل في الظاهر وخرج من بلداننا، ولكنه ما يزال يستغل القابلية للاستعمار، التي قد يغفل عنها «فِكْرُ مخطّط الدعوة إلى الإسلام باعتبارها شيئًا يقع وراء مشكلات الدعوة وليس أمامها»[104].

والوعي بهذه التشابكات بين مخططات الاستعمار وبين مخلفات القابلية للاستعمار، تجعل المسلم على استعداد لتقديم الإسلام ليستعير منه العالم القيم الأخلاقية، بدل أن «يستعير قيمًا صُنِعت من اليهود»[105]؛ لأنه إذا استعار من اليهود قيمهم الأخلاقية التي أنتجت العنصرية والاستعمار فإنه «لن يكون مستحيلاً حينئذ أن تتضافر المصالح والأفكار ضد العالم الإسلامي، كما كان من قبل تضامن الاستعمار، وهو يعمل بإدارة اليهود»[106].

كما أن الوعي بهذه التشابكات يجعل من الدعوة إلى الإسلام والتبشير به وبقيمه، عملاً واقعيًّا، لبناء مستقبل الإنسانية في ظل السلام والأمن بمضامين جديدة تمنع العصر الاستعماري من أن يتكرر. ومن هنا فالمطلوب من العالم الإسلامي «سياسة طويلة المدى وإستراتيجية فاعلة هادئة، إستراتيجية تسعى نحو مستقبل تزول فيه أسباب الحرب».[107]

ولهذا يرى بن نبي، أن على المسلمين، لأجل نجاح هذه المهمة، أن يشخّصوا ميراث هذا العصر وممكنات العصر المقبل، واستيعابها في بعدها العالمي، وأن تكون أنشطة المسلمين لها طابع التعاون المشترك والتخطيط، والدعوة إلى الإسلام وفق ذلك. ولذلك يحذّر من أن يأخذ المسلمون المستقبل بعفوية، ومن دون «خطة مقررة تحدد المراحل والوسائل والأهداف».[108]

ويفصّل بن نبي في القسم الثاني من هذا الكتاب في وضع خطة إستراتيجية للتبشير بالإسلام بكونه ملاذ الحضارة الإنسانية الذي يوفر لها الزاد الروحي والمضمون الأخلاقي. ويرى أن هذه الإستراتيجية ينبغي «أن تُبنَى على مركزية قيادة عليا»[109] توجه وتنظم وتعمل على أداء رسالتها في وجهين متكاملين: «الوجه الأول يتعلق بالخطة في جانبها الداخلي لتقوم بدراسة واقع البلاد الإسلامية نفسها وتزود الإستراتيجية بالوسائل، والوجه الثاني يتعلق بجانبها الخارجي الذي هو البلاد غير الإسلامية التي تشكل مساحة هذه الإستراتيجية»[110].

فالوجه الأول عبارة عن خطة تتوجّه للداخل، وتدرس واقع العالم الإسلامي ودوله

ومجتمعاته، وعوامل الانحطاط والقابلية للاستعمار، ثم القيام بعمل تركيبي أشار إليه في كتابه (شروط النهضة) للتخلص من القابلية للاستعمار، وإعداد نخبة مختارة، وتنويع السبل وتحديدها، انطلاقًا من مركزية قيادة إستراتيجية عليا. وهذا يقتضي مشروعًا ثقافيًّا يعيد بناء الثقافة لتكون ثقافة نهضة لا ثقافة تخلف.[111]

أما الوجه الثاني فهو كيفية توصيل الإسلام إلى غير المسلمين. وهذا يتعلق بتكوين من يدعو إلى الإسلام، ويفترض فيها الإيمان بالإسلام دينًا، والالتزام الأخلاقي، والبناء الفكري وغيره مما نسميه دستور الثقافة[112]: «جمالية الأداء، وأخلاقية السلوك، والمنطق العملي في المبادرة... والخبرة الفنية»[113]. وهذا أيضًا يتطلب معرفة بلغات الشعوب، وعاداتها، وثقافتها، وهذا يستدعي الوعي بأنثروبولوجيا الثقافات والأديان والشعوب؛ لرسم إستراتيجيات إيصال الإسلام وقيمه، بطرائق مختلفة، «الطريقة الأوروبية التي تخصّ بلاد الغرب بما فيها أمريكا وأستراليا، والطريقة الآسيوية التي تخصّ الهند والصين واليابان، وأخيرًا الطريقة الإفريقية».[114]

ولمواجهة العنصرية التي أنتجتها الحضارة الغربية بفعل تهوّدها، فإن بن نبي يرى أن هناك مبدأً إسلاميًّا ضروريًّا لنجاح تقديم الإسلام إلى العالم، وقبل ذلك هو مبدأ ضروري لخروج المسلمين من تخلفهم وتفرقهم الذي أورثته لنا سيرورة القابلية للاستعمار، واستغله الاستعمار وعمّقه، هذا المبدأ هو «الوحدة والأخوّة «[115] الذي عبّرت عنه الآية الكريمة: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}[116]، وبالرغم من أن المسلمين لم يفقدوا الشعور بالأخوة، لكنه ينبغي أن يتحول إلى وعي بصير تُرسَم على أساسه الخطط والإستراتيجيات. يقول بن نبي: «الأخوّة التي يُعبَّر عنها في مختلف أنحاء العالم الإسلامي لا تزال في عمق الشعور، ولا بد أن تنتقل إلى وعي يجند الطاقة في بناء للمؤاخاة هادف وتطوعي بين المسلمين والعالم الإسلامي»[117].

ومن جهة أخرى، فإن الإسلام يتمتع «بوضع القاسم المشترك مع جميع الثقافات التي تؤلف الخريطة الروحية في العالم»[118]؛ لأنه بإمكانه الاستجابة روحيًّا وتشريعيًّا وإنسانيًّا لمختلف تطلعات الشعوب على اختلاف أديانها الكتابية أو غير الكتابية. كما أنه بسبب إهدار الحضارة الغربية المعاصرة للإمكانات الأخلاقية والنظم التقليدية للإنسانية، فإنّها خلقت فراغًا روحيًّا كبيرًا، وإن الإسلام «بسبب روابطه العديدة بالنسيج الإنساني الراهن... وبفضل طبيعته واتصالاته... هذا الإسلام هو الجسر الذي يصل ما بين الأجناس والثقافات، فهو عامل بلورة، وعنصر جوهري إذا ما أردنا اليوم تكوين (مركب) حضارة أفرسيوية، وغدًا تكوين حضارة عالمية»[119].

وهذا لا يجعل الهدف من هذا التبشير بالإسلام للعالم ديني فقط، بل من أجل أن يستعيد العالم سلامه وأمنه، ولتتعافى الحضارة من سيطرة العنصرية والاستعمار والمادية التي هيمنت عليها بفعل هيمنة اليهود عليها، وكان من ثمرات هذه الهيمنة اليهودية «دولة إسرائيل»[120]، التي هي مصدر توتر وصراعات وهدر لكرامة الإنسان وتقطيع لجسور التواصل والتعاون بين العالم الإسلامي والغرب وغيره من الكيانات الحضارية.

الخاتمة:

نختم هذا البحث بتسجيل مجموعة نتائج:

أوّلها: أن موضوع المسألة اليهودية في فكر مالك بن نبي قد تناوله ضمن أطروحته في معالجة مشكلات الحضارة الإسلامية، وفي سياق الاستعمار والقابلية للاستعمار، ومن الصعب فهم معالجته للمسألة بمعزل عن تناوله لمعوّقات جهود النهضة والتحضّر في العالم الإسلامي، وكيف أسهم النفوذ اليهودي في أوربا والعالم الغربي في تأجيج العنصرية والصراع مع العالم الإسلامي وتركيز مشروع الاستعمار على تعطيل العالم الإسلامي عن نهضته وتشتيت جهوده وإحداث التوترات فيه، ومن أظهرها الاحتلال الصهيوني لفلسطين، الذي نشهد اليوم آثاره الوخيمة، ووقوف كل القوى الغربية المؤسسية مساندة للمشروع الصهيوني.

ثانيها: أن بن نبي تناول النفوذ اليهودي في أوروبا والحضارة الغربية لا بوصفه حدثًا طارئًا أو عرضيًّا، بل هو مسار تاريخي متدرج إلى أن وصل إلى هيمنة اليهود على الحضارة الغربية في قيمها ومؤسساتها ومصالحها وأصبغ عليها المادية والعنصرية، وأثمر الاستعمار. وإن هذا المسار الطويل صاحبه تحولات اجتماعية على الوجود اليهودية والتركيبة اليهودية في أوروبا من السكنى في الجيتو على السكنى في المركز وتبوُّؤ صدارة صناعة المال والأعمال والسياسات.

ثالثها: أن فهم المسألة اليهودية ومسارها وتموقعها واختراقها للوعي الغربي والمؤسسات والمجتمعات الغربية اقتضى من بن نبي دراسات تاريخية وملاحظات اجتماعية، ولهذا فإنّه اعتمد التحليل التاريخي لانتشار الشتات اليهودي في أوروبا منذ ألفَي سنة، وكذلك التحليل النفسي الاجتماعي للشخصية اليهودية في كل مرحلة تاريخية خلال تلك المدة الزمنية، ليصل إلى تصنيف اليهود تاريخيًّا واجتماعيًّا نفسيًّا إلى فئات ذكرناها في البحث، تشبه ما قام به المسيري وغيره فيما بعد.

رابعها: أن آثار التغلغل اليهودي في الحضارة الغربية أدّت إلى أنّها صارت حضارة متهوّدة في قيمها ورؤيتها وسياساتها، وهذا أنتج أن تفقد الحضارة المعاصرة مضمونها الإنساني، وتعاني خواءً كبيرًا، بفعل سيطرة الرؤية المادية والعنصرية التي غرسها اليهود في أوروبا الحديثة، وقيام حروب كثيرة في العالم بسبب ذلك، وهذه الوضعية جعلت البشرية تتطلع إلى عالم جديد مختلف عن العالم الذي سيطر فيه اليهود وأورثوه الصراع والعنصرية وفقدان المعنى.

خامسها: أن الإسلام هو الوحيد المؤهّل ليكون الملاذ الروحي للحضارة الإنسانية بما يملكه من مضمون روحي ومن استعصاء على التحريف والتبديل في رؤيته وقيمه ورسالته، وهو الوحيد المؤهل لتحقيق السلام العالمي والأخذ على يد اليهود. ولكن لتحقيق ذلك يجب أن تكون للمسلمين إستراتيجية التبشير بالإسلام في العالم، وفق خطة واضحة وقيادة مركزية، وألّا يُترَك الأمر للعفوية والصدفة.

الهوامش والمراجع:

1. رضوان السيد، "**مالك بن نبي والقابلية للاستعمار والمسألة اليهودية**"، العدد 12152، 6 مارس 2012.
https://archive.aawsat.com/details.asp?section=17&article=666700&issueno=12152 شُوهِد بتاريخ 27/ 11/ 2023.

2. عبد الرزاق بلعقروز، "**المسألة اليهودية في فكر مالك بن نبي: في أن اليهود هم عقل الحضارة الأوروبية وروحها**". 11 مارس 2015.
https://www.nama-center.com/articles/details/30524 شُوهِد بتاريخ 27/11 2023

3. بلعقروز، المرجع نفسه.

4. عماد العبار، "**مالك بن نبي والصورة الكاملة**". 22 فبراير 2017.
https://freedomraise.net/%d9%85%d8%a7%d9%84%d9%83-%d8%a8%d9%86-%d9%86%d8%a8%d9%8a-%d9%88%d8%a7%d9%84%d8%b5%d9%88%d8%b1%d8%a9-%d8%a7%d9%84%d9%83%d8%/a7%d9%85%d9%84%d8%a9

5. العبار، المرجع نفسه.

6. المرجع نفسه.

7. إبراهيم العجلوني، "مالك بن نبي والمسألة اليهودية". 5/3/ 2017.
https://alrai.com/article/10389070/كتاب/مالك-بن-نبي-والمسألة-اليهودية شُوهِد بتاريخ 27/11/ 2023.

8. دلال الجار الله، **المسألة اليهودية بين كارل ماركس ومالك بن نبي دراسة مقارنة**، الدوحة: جامعة حمد بن خليفة، 2018، ص58.

9. سمية قواجلية، "**مراجعة كتاب وجهة العالم الإسلامي (المسألة اليهودية) لمالك بن نبي**». 11 أكتوبر 2019.
https://www.proquest.com/docview/2640412898/fulltextPDF/2F9A7355DF6B4748PQ/1?accountid=13370
https://bluenoqta.com/7193 شُوهِد بتاريخ 27/11/ 2023.

10. المرجع نفسه.

11. أحمد طرفاوي، "**اليهود والغرب في أدبيات مالك بن نبي**»، جسور المعرفة، مجلد 6، عدد 1، 2020، ص27-3.
https://www.asjp.cerist.dz/en/article/112363 شُوهِد في 27/11/2023.

12. عبد القادر بن قدور، «**المسألة اليهودية في فكر مالك بن نبي**»، منار الإسلام، 19 نوفمبر 2021.
https://islamanar.com/the-jewish-question/ شُوهِد بتاريخ 27/ 11/ 2023.

13. المرجع نفسه.

14. المرجع نفسه.

15. مصطفى كيحل، "**المسألة اليهودية في فكر مالك بن نبي**». **أخبار الوطن، السنة 3، العدد 1125، 22 أكتوبر 2023، ص15.**
https://cdn.akhbarelwatane.dz/wp-content/uploads/2023/10/watane-95.pdf شُوهِد بتاريخ 27/ 11/ 2023.

16. مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي: المسألة اليهودية**، ط1، دمشق: دار الفكر، 1433ه/ 2012م، ص29.

17. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص29.

18. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص29.

19. بدران بن لحسن، **الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري**، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1999، ص48-45.

20. بن لحسن، **الظاهرة الغربية**، ص61.

21. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص.123

22. وعصر ما بعد الموحدين، يؤرخ به بن نبي للنقطة التي انتهى فيه النفس الحضاري للمسلمين، ولحظة انقلاب القيم الإسلامية الحقة إلى أشياء لا قيمة لها. بالرغم من أنه لم يكن «انقلابًا فجائيًا، إذ هو النهاية البعيدة للانفصال الذي حدث في (صفين)، فأحل السلطة العصبية محل الحكومة الديمقراطية الخليفية، فخلق بذلك هوة بين الدولة وبين الضمير الشعبي، وكان ذلك الانفصال يحتوي في داخله جميع أنواع التمزق، والمناقضات السياسية المقبلة في قلب العالم الإسلامي». مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، دمشق: دار الفكر، 2002، ص36-35.

23. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص32.

24. عبد الرزاق بلعقروز، "**المسألة اليهودية في فكر مالك بن نبي: في أن اليهود هم عقل الحضارة الأوروبية وروحها**». 11 مارس 2015.
https://www.nama-center.com/articles/details/30524 شُوهِد بتاريخ 27/11 2023

25. بلعقروز، المرجع نفسه.

26. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص18.

27. طه عبد الرحمن، **الحق العربي في الاختلاف الفلسفي**، ط2، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2006، ص65-60؛ عبد الوهاب المسيري، **من هو اليهودي**، ط3، القاهرة، دار الشروق، 2002، ص52-9.

28. مالك بن نبي، **مذكرات شاهد القرن: الطفل والطالب**، دمشق: دار الفكر، 1984، ص41، 279، 367.

29. مالك بن نبي، **العفن: 1940-1932**، ترجمة: نور الدين خندودي، ط1، الجزائر، دار الأمة، 2007، ج1/ص 78.

30. بن نبي، **العفن**، ج1/ص 79.

31. بن نبي، **العفن**، ج1/ ص79.

32. عبد الرزاق بلعقروز، "**المسألة اليهودية في فكر مالك بن نبي: في أن اليهود هم عقل الحضارة الأوروبية وروحها**». 11 مارس 2015.
https://www.nama-center.com/articles/details/30524 شُوهِد بتاريخ 27/11 2023

33. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص37-36.

34. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص42.

35. عبد الرزاق بلعقروز، "**المسألة اليهودية في فكر مالك بن نبي: في أن اليهود هم عقل الحضارة الأوروبية وروحها**». 11 مارس 2015.
https://www.nama-center.com/articles/details/30524 شُوهِد بتاريخ 27/11 2023

36. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص41.

37. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص43.

38. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص43.

39. عبد الرزاق بلعقروز، "**المسألة اليهودية في فكر مالك بن نبي: في أن اليهود هم عقل الحضارة الأوروبية وروحها**». 11 مارس 2015.
https://www.nama-center.com/articles/details/30524 شُوهِد بتاريخ 27/11 2023

40. غوستاف لوبون، **اليهود في تاريخ الحضارات الأولى**، ترجمة: عادل زعيتر، يورك هواس: مؤسسة هنداوي، 2016، ص33.

41. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص50.

42. عبد الرزاق بلعقروز، "**المسألة اليهودية في فكر مالك بن نبي: في أن اليهود هم عقل الحضارة الأوروبية وروحها**». 11 مارس 2015.
https://www.nama-center.com/articles/details/30524 شُوهِد بتاريخ 27/11 2023

43. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص62

44. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص60.

45. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص60.

46. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص61.

47. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص73.

48. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص60.

49. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص60.

50. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص46.

51. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص46.

52. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص47.

53. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص45.

54. عبد الرزاق بلعقروز، "**المسألة اليهودية في فكر مالك بن نبي: في أن اليهود هم عقل الحضارة الأوروبية وروحها**». 11 مارس 2015.
https://www.nama-center.com/articles/details/30524 شُوهِد بتاريخ 27/11 2023

55. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص54.

56. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص54.

57. الجار الله، **المسألة اليهودية بين كارل ماركس ومالك بن نبي**، ص58.

58. بن نبي، **المسألة اليهودية**، 91-60.

59. بن نبي، المسألة اليهودية، ص65-60.

60. بن نبي، المسألة اليهودية، ص65.

61. بن نبي، المسألة اليهودية، ص67.

62. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص71.

63. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص71.

64. عبد الرزاق بلعقروز، "**المسألة اليهودية في فكر مالك بن نبي: في أن اليهود هم عقل الحضارة الأوروبية وروحها**». 11 مارس 2015.
https://www.nama-center.com/articles/details/30524 شُوهِد بتاريخ 27/11 2023

65. الجار الله، **المسألة اليهودية بين كارل ماركس ومالك بن نبي**، ص59.

66. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص75.

67. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص76.

68. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص76.

69. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص79-76.

70. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص79.

71. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص79.

72. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص81.

73. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص83.

74. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص91.

75. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص91.

76. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص91.

77. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص98.

78. إسماعيل راجي الفاروقي، **الملل المعاصرة في الدين اليهودية**، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، 1968، ص128-109.

79. جمال حمدان، **اليهود أنثربولوجيًا**، القاهرة: دار الهلال، 1996، ص129-79.

80. عبد الوهاب المسيري، **من هو اليهودي**، ط3، القاهرة، دار الشروق، 2002، ص52-9؛ عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، ط1، القاهرة: دار الشروق، 1991، المجلد الثالث والمجلد الرابع.

81. كيحل، **المسألة اليهودية في فكر مالك بن نبي**، ص15.

82. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص57.

83. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص57.

84. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص102.

85. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص109.

86. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص109.

87. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص109.

88. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص109.

89. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص110-109.

90. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص110.

91. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص113.

92. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص123-118.

93. مالك بن نبي، **فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ**، ط 8، دمشق: دار الفكر، 2012، ص21.

94. بن نبي، **فكرة الإفريقية الآسيوية**، ص22.

95. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص128-127.

96. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص129.

97. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص130.

98. بن نبي، **فكرة الإفريقية الآسيوية**، ص227.

99. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص135.

100. عبد الرزاق بلعقروز، "**المسألة اليهودية في فكر مالك بن نبي: في أن اليهود هم عقل الحضارة الأوروبية وروحها**». 11 مارس 2015.
https://www.nama-center.com/articles/details/30524 شُوهِد بتاريخ 27/11 2023

101. بنقدور، "**المسألة اليهودية في فكر مالك بن نبي**»، منار الإسلام، 19 نوفمبر 2021.

102. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص135.

103. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص136.

104. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص136.

105. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص137.

106. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص137.

107. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص137.

108. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص136.

109. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص137.

110. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص137.

111. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص138-137.

112. بن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، 1986، ص82-81.

113. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص139.

114. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص140.

115. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص144.

116. القرآن الكريم، **سورة الحجرات**، الآية 10.

117. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص145.

118. **بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، ص227.**

119. **بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، ص227.**

120. بن نبي، **المسألة اليهودية**، ص149.